

المزايا القصصية في أحسن القصص "قصة يوسف"

Anecdotal advantages in the best stories, "the story of Joseph."

شمس الحسين ظهير¹

Abstract

The fundamentals of every kind of science is described directly or indirectly by the Holy Quran whether it was the drawing sketch of modern applied sciences or directions towards theoretical rules and regulations, so on. The concept of literary arts was traced back to the Holy Quran as the mentioned rules were traced. The article describes the fundamentals of a story in the Surah Yusuf. All these basics have been discussed with detail in the light of those Quranic verses.

المدخل

القرآن مجموع لكل العلوم الآلية والعقلية والنقلية، وما من علم إلا ويرجع إلى القرآن منذ نشأته وكيفية بيانه وتطوره في مختلف الزمن حتى علومنا الحديثة التكنولوجية والرياضية والأدبية، سواء صرح القرآن بتلك العلوم أم أشار إليها ضمن البيان لبعض أمور أخرى.

والمكتشفون أخذوا أسس مفكوراتهم من الوحي بأية كيفية كانت، مباشرة أو غير مباشرة. فكذا تطور القصة وعناصرها في زماننا ليست هي إلا إشارات مأخوذة عن القرآن الكريم، ولو توسع الأدباء في بيان جزئياتها بأنها أحداث في قصة وهذا زمانها وتلك شخوصها وذلك صراعها. فكل تلك البدايات ترجع إلى القرآن حينما نطالع قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - ونجد فيها كل ما يعرفها الأدباء في قصة ما مثل ما أشرنا إليه بجملا.

¹ باحث بقسم اللغة العربية، جامعة إسلامية كالج، بشاور

ونتناول كل تلك الملامح بالتفصيل مصاحبة بذكر المواضع التي ذكرها الله - سبحانه وتعالى- في قصة نبيه يوسف - عليه السلام.

الأحداث

دارت أحداث قصة يوسف - عليه السلام - بين إخوته وأبويه والقافلة التي كانت تسافر إلى مصر ومع صاحبيه في السجن وملك مصر وزوجته زليخا وعمال الملك ثم صار زمام الأمر إليه في ختام القصة.

انطلقت أحداث هذه القصة من عنود أبناء سيدنا يعقوب - عليه السلام - لابنه يوسف، عليه السلام¹، وكادوا لإبعاده عن أنظار يعقوب عليه السلام ليخلو لهم وجه أبيهم² فاحتالوا له فذهبوا به معهم إلى الصحراء لإنجاز مكيدهم الفاضح. ثم ألقوه في غيابة الحب، وجاءوا أباهم عشاء يبكون أن يوسف - عليه السلام - قد أكله الذئب، وكانوا عنه غافلين برعاية الغنم.

وحدث أن تواردت على هذا الحب قافلة تجارٍ إلى مصر، فلما دنوا من الحب لإدلاء الماء فوجدوا غلاماً على الدلو، فذهبوا به معهم وشروه بثمن بدرهم معدودة بخس وتساهلوا فيه، فألقي بيد عزيز مصر فتبناه لينفعه.

وكان سيدنا يوسف - عليه السلام - يعيش بين ظهري أسرة الملك أن عشقت زوجته به. فبينما يوماً كان الملك غائبا فعلمت الزوجة أبواب البلاط وطلبت من يوسف - عليه السلام - أن يفعل بها ما شاءت، فأساءت الطلب إليه وقرّ منها كريم النفس نحو الباب ووجدت زوجها فاحتالت أنه هو أراد بها سوءاً ثم اقترحت على الملك أن يسجن يوسف - عليه السلام - عقاباً بعمله الذي افترتها عليه زوجة الملك.

كان يوسف - عليه السلام - يصبح ليالي في السجن، وظهرت عفته على ماكني السجن. وكان هناك في السجن صاحبان له، فأرى كل واحد منهما مناما وأتيا إلى يوسف - عليه السلام - لتعاير مناميهما فعبير كل واحد منهما بأن إحداهما سيطلق عنه القيد، وقال له: عندما تذهب إلى الملك فأذكر له ما أن يذكره عند الملك، فأنساه الشيطان ذكر يوسف - عليه السلام - عند الملك.

فأرى الملك ذات ليلة مناما فطلب من ماله تعبیر المنام فاحتلج عليهم أمر التعبير، فتذكر صاحب السجن أنه كان له صاحب في السجن يعبر المنامات. فأتى إليه يطلب من تعبيرا لمنام الملك فعندما عبر له المنام، فعلم الملك بمكانة يوسف - عليه السلام - فأرسل خلفه رجاله ليأتوا به إليه فاستفتش يوسف من الملك حقيقة القصة التي جرت بينه وبين - زليخا - زوجة عزيز مصر. فلما علم الملك حقيقة تلك القصة أطلق سراحه واستخلصه لوزارة الخزانة لأمانته وعلمه بشؤون تلك الوزارة.

وكان يوسف - عليه السلام - يعمل الوزارة، فأصاب الناس القحط بأرض كنعان وذاعت أخبار لينة يوسف في الآفاق فبعث يعقوب - عليه السلام - إليه ليتمتاروا. فلما جهز لهم بجهازهم قال لهم: اتوني بأخ لكم من أبيكم، ففي المرة الثانية أتوا إليهم مصاحبة بنيامين أخيهم.

فكاد يوسف - عليه السلام - لاستيقاف أخيه معه، ففعل ما كاد له. وذهب أخوهم إلى أبيهم، ثم لما أرسلهم يعقوب - عليه السلام - لإتيانه، فعرف يوسف نفسه له، فعلموا أنه أخوهم يوسف الذي قد ألقوه في غيابة الجب لخلو وجه أبيهم لهم. ثم طلب يوسف من أخوتهم أن يأتوا بوالديهم إليه.

ففعلوا ذلك وعندما وصل يعقوب - عليه السلام - مع بنيه إلى مصر فكترهم يوسف - عليه السلام - وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش، وعفا عن إخوتهم لمساواتهم إليه. لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب³.

وأحداث قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - ليست خيالية مثل أساطير أقوام يخفون بما عن نفوسهم حينما يتعبون في أمور حياتهم كل يوم، كما دارت بين كل قوم منذ عثرنا على تاريخ الرواية العالمية، مع انطباق كل حدث في القصة بالواقعية وكل حدث فيها القارئ إلى استماع ما سيستقبل في آي السورة الآتية.

المكان

مع رعاية الفرق المعلوم بين كل من أسطورة وقصة ورواية والفرق بين مقتضياتها، لا بد في القصة من المكان التي تعين القارئ على كيفية وقوع تلك القصة.

فذكر المكان منذ بداية الرواية لها أهمية كبيرة عند بعض الروائيين كما يقول الحميداني: "إن المكان يساهم في خلق المعنى داخل الرواية، ولا يكون دائماً تابعاً ولا سلبياً، بل إنه يمكن للراوي أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن موقف الأبطال من العالم"⁴.

وكذا تأثر البيئة والمكان في توضيح الرجال وصفاتهم وسلوكهم وطباعهم الخلقية والخلقية، فكذا تتوضح لنا من مساكن القصة هذه أن يوسف - عليه السلام - قد عانى مشاكل كثيرة بدءاً من الطفولة حتى الكهولة؛ فكان يسكن مع أبيه في كنعان من نواحي بيت المقدس⁵، ثم ألقى في بئر تقع بين مصر ومدين، ثم وقع على أيدي السيارة فذهبوا به معهم إلى سوق مصر التي اشتراه عزيز مصر وتبناه.

ثم حدث له ما حدث بقصر ملك مصر أن افترى عليه زوجة ملك زليخا فعاتبه الملك بإلقائه في السجن، ثم مكث مسجوناً إلى مدة طويلاً، وبعد التسريح عنه استوزره الملك لخزائنه فكان يعدل بين الناس ولو مرّ بنفسه بمشقة تعباً وبمعاناة مرّة، ثم جعل الناس يأتون إليه للميرة إلى أن احتاج إخوته الذين قد ظلموا عليه ظلماً شديداً حتى أصبح بختام الأمر صاحب عرش مصر.

وأماكن قصة يوسف - عليه السلام - تنقسم إلى أربع؛ بين يدي أسرته في كنعان⁶، ثم في داخل القصر الملكي بمصر عندما كان متبني للملك⁷، ثم مسجوناً مدة مديدة⁸، وفي المرحلة الرابعة عندما صار أمين الخزائن حتى وصل إلى إمارة مصر⁹.

لا نعي بها مجرد المكان بل مكاناً يفيد في بيئة القصة وشخصيتها وأحداثها وتقاليدها وأهلها وتعطلاتها، ويأثر ويتأثر بشخصياتها ويتفاعل مع شخصيات القصة¹⁰. ولكل من تلك الأماكن أثرها في حياة سيدنا يوسف - عليه السلام -، ولا ينقص وميض العرش من كريم خلقه، وشدة إلفه بمن اعتدى عليه، ولم تجرمه المظالم المحرأة عليه على العقوبة من إخوته أو من غيره.

وفي هذه القصة كثيراً ما نرى تحيط الأماكن بمهالة من الخوف الفرع والرهبة، كما تضيف في سمع الرجل للقصة شوقاً وإلفاً، وتأكيداً للقارئ بتبع يسر عسراً، وكيف لا كل

ذاك ؟ إذ سماها الله تعالى بأحسن القصص مما أوحاه الله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم¹¹.

ولن نقول بكون قصة يوسف مثل أساطير الأقوام الماضية وكذا لا نقول بكونها سبب التخفيف عن متاعب اليوم في مشابقتها بقصص ألف ليلة وليلة عند العرب، أو قصص بوكيشوفي كتابه "ديكامرون" لدى الإيطاليين.

بل هي تسليية الرسول - صلى الله تعالى عليه وسلم - عما يفعله به قومه بما فعلت إخوة يوسف - عليه السلام - به، وما هي بقصة خرافية بل واقعية فوق الحقيقة إذ نزلت به الروح الأمين.

الزمان

زمان القصص لقصّة يختلف عن زمان حدثت فيه تلك القصّة، معنى أن قصة سيدنا - يوسف - لها زمن حدثت فيه القصّة، ولنزول القرآن وإخباره عن هذه القصّة زمن آخر، فصار الزمان زمنين. ومثل هذا تقول بمعنى العيد: ".....فالقصص يصرف زماناً في آخر، يصرف زمن الشيء الذي يقص عنه في زمن فعله، أو في زمن قصه"¹². أو قل هناك زمانان: "زمن الدال وزمن المدلول"¹³.

عندما يبدأ القرآن ببيان القصّة فيقول: "....نحن نقص عليك أحسن القصص إذ قال يوسف لأبيه...."¹⁴. فمن الكلمتين وهما "نقص" و"إذ" يتوضح الزمانان المختلفان؛ زمن يوسف - عليه السلام - وزمن نزول القرآن بسورة يوسف. وقد صرّفها النزول في زمن فعلها ولذا تعجب أخبار اليهود عندما سمعوا منها¹⁵.

أشخاص

أكثر ما يأتون الروائيون والقصاصون بشخصيات لها قسمين؛ حقيقية وخيالية تساعد في إفهام ما يريد القصاص بقصته، لكننا لا نجد الحالة عند قصة يوسف - عليه السلام -، إذ ليست فيها شخصية خيالية واحدة، بل تعتمد كلها على شخوص واقعية ولكل منهم مأخذ من ذكر القرآن فيه، ولذا لا نجد إلا انتماء كل واحد منهم إلى عمل قد صدر منه. فلو رفع أحد في ظلمه فذكره القرآن ولو اشتد آخر شرساً وظلماً لم يأل القرآن تناولاً أيضاً، ونحن نشير إليها بسيرة في فقرات تالية.

تعدّ شخصية سيدنا يوسف - عليه السلام - رئيسية لحضورها البارز، ودوران الأحداث حولها، تأثر في أشخاص القصة الأخرى وتتاثر بهم، حيث بنيت أحداث القصة على أحواله داخل البيت ومغترباً عن وطنه وعن عيني أبيه يعقوب - عليه السلام -.

مضيفة إلى ذلك هو يرفق بأخوته عندما تحصل له القوة ويتمكّن من الانتقام، ومع ذلك يعفو عن مساوئهم إياه¹⁶. ومن الشخوص الرئيسية شخصية سيدنا يعقوب - عليه السلام بحيث حصل له دور من بداية القصة بأمره لابنه يوسف أن يخفي منامه على أخيه مخافة مكائدهم له، ثم ابيضّت عيناه من الحزن بفرقة ابنه حتى الحضور إلى الابن بمصر عندما صار ملك مصر، وتزوج بتاج ملكي، وسجد لهم كلهم من أفراد أسرته.

ومع ذلك لم ننس رأفته بأبنائه كلهم حينما أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة عندما أرادوا الميرة من ملك مصر مخافة العين اللامة¹⁷. ثم تدور شخصية الإخوة حول مكائدهم لاقتراحهم من الأب، وإبعاد يوسف عن الأب، وحول ما صدر منهم شبراً بشير من عنادهم وحسداهم ليوسف - عليه السلام - ولم يبالوا بما اتهموه مواجهةً بالسرقة¹⁸.

ولم يتخذ القرآن الكريم شخصية خيالية بل ما صدر من إخوة يوسف فهي حقائق تحدث بين إخوة كما حدث بين ابني آدم عندما تقربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. فقام الغير الناحج وقتل من تُقبّل منه¹⁹.

وهكذا صورة زوجة الملك التي والملك نفسه لا نكير من دورهما في هذه القصة، إذ قد فعلت الزوجة ما تتوقع من زوجات الملوك في كل عصر وهي أن راودت المتبني عن نفسه فرفض لطلب، ثم اتهمه عكساً، وهذه المقايح أكثر ما توجد في زماننا في بيوت المخدومين. ومن رغم انكشاف الحقيقة عليه عدّب يوسف بالقائه في السجن، واستكان أمام زوجته ولم يتمكن من عقوبتها وتعذيبها.

وأما القافلة الأولى القادمة من مصر إلى كنعان، والشاهد الذي حكم بين سيدنا يوسف- عليه السلام- وبين زوجة الملك فهي شخصيات غير رئيسية، لا تتراءى إلا في مشهد أو مشهدين بحيث لا تتأثر بها القصة إلا قليلاً وسرعان ما تغيب عن الحدث المتطور.

الصراع

من عادة كل قصصي أنه يجعل من رجل بطلاً لقصته أو روايته، ثم رغبة في البطل أو رغبة عنه يمثل كل ممثل في قصته، ولو كان الممثل يتوارد هنا أو هناك، لكن مدار القصة كلها يدور حول البطل حتى نهاية تلك القصة، ولا يزال البطل يصاحب صدقاً وخيراً؛ يولد وينشأ في خير ويعمل له وطبعاً تميل إليها الطباع وله تتحزّب. من رغم المشاكل التي يواجهها هذا البطل في طلب الحق، ينتصر في ختام الرواية أو القصة بعد انتقام من المعاندين أو عفواً عنهم، وكل تلك الأمور سمّيت بصراع في قصّة ما.

بدأتالسورة بصراع العناد من إخوة يوسف - عليه السلام - له، ولتخلية وجه أبيهم لهم ألقوه في غيابة الحب، أن لقي سيارة الوافدين على البئر. ثم دارت الأصرعة بكل قدم له بيعه من أيدي السيارة أن باعوه من عزيز مصر.

فابتسمت حياته قليلاً فعاض عيش راحة ورغيد، أن راودته زوجته الملك وطلبت منه السوء، عقاباً من فعلها المسيء سحنت يوسف غير مشروع وإثباتاً ليعتقد صاحبها بأنها صادقة و -معاذ الله- هو الكاذب.

ثم تحول مشهد آخر وهو مشهد السجن، عندما مكث في السجن كرائد مطاع عند أصحاب السجن، وكانوا يكرمونه ويستشيرون به في شؤون حياتهم حتى أطلق عنه الملك السرح يوماً واستوزره على خزائن مُلكه،

فكانت إخوته يتوافدون عليه ميرةً لأسرتهم لينتفعوا بها في أيام الجذب الذي وقع على منطقة يعيش فيها تلك الإخوة. وجاءت الساعة التي كانت تُنتظر وجمع إخوته مع والديه في القصر الملكي بمصر ،

وتقبل الله دعاء يعقوب - عليه السلام - حين قال: عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً²⁰، فجمعهم الله إلى سيدنا يوسف - عليه السلام - وخرّوا له سُجّداً²¹، واستسلموا له بمكاته السامية بعد ما ظلموا عليه حسداً من عند أنفسهم.

الخلاصة

تبين لنا أن في سورة يوسف جميع ما يكون في قصة واقعية، وجميع عناصر القصة تجتمعها قصة بيتها سورة يوسف، كما أن لا علم قام على سوقه في العصر الحديث إلا وترجع صلاته الداخلية إلى القرآن الكريم، كذا بنية القصة العربية من حيث عناصرها تعود على أسس نزلها الله في كلامه إيجاباً إليه أم مباشرةً.

الحواشي

- 1 سورة يوسف: 8
- 2 المصدر السابق: 9
- 3 المصدر السابق: 111
- 4 بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد الحميداني: 70، المركز الثقافي العربي، ط2، 1993م
- 5 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني: 6: 388، الألوسي،
- 6 سورة يوسف: 3 - 18
- 7 المصدر السابق: 19 - 32
- 8 المصدر السابق: 33 - 53
- 9 المصدر السابق: 54 - 101
- 10 وهي ما يقتضيها المكان في قصة أو رواية. انظر: تطور الرواية العربية الحديثة: 43، عبد المحسن طه بدر
- 11 سورة يوسف: 3
- 12 تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي: 72
- 13 تحليل الخطاب الروائي؛ الزمن، السرد، التبعية، يقطين سعيد: 76
- 14 سورة يوسف: 4، 3
- 15 انظر: روح المعاني: 6: 362

16 سورة يوسف: 92

17 انظر المصدر السابق: 67، 68

18 عندما قال إخوة سيدنا يوسف له: إِنَّ يَسْرِقَ فَتَدْ سَرَقَ أَخْلَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَمَ

يُؤْيِدْهَا لَهُمْ. سورة يوسف: 77

19 انظر: سورة المائدة 27-31

20 سورة يوسف: 83

21 المصدر السابق: 100